

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

استاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٥ —

الربانة المصرية — التوفيق بين الربانة والفلسفة

أشرنا في الكلمة السابقة إلى الخلاف الذى وقع بين المستصرين حول التطور الدينى المصرى وهل هو وليد الفلسفة أو الفلسفة هى وليده. ولما كنا قد تناولنا بهذه المناسبة الكلام على «رع» وتأسرعه، فقد وجب علينا إتماما للموضوع أن نشير إلى إلهة أخرى لا تقل عن السابقين أهمية، وهى «مآت» ابنة «رع» العظيمة

ليست هذه الإلهة من التاسوع، لأنها روحه كله، وبدونها لا يحيا أى واحد من الآلهة، لأنها هى : «الحقيقة والعقل والعدالة». وهل يمكن أن يحيا أى إله بدون الحقيقة والعقل والعدالة؟ وتمتاز هذه الإلهة بأنها تجىء إلى الأرض يحملها فرعون ويتولى تطبيق صفاتها وإبرازها إلى حين الوجود بطريقة عملية ويظل حارسها الأمين إلى أن يموت فتعود إلى السماء وتبقى فيها ريثما يصعد الملك الجديد على العرش فيؤكل إليه أمر حملها وحراستها كسابقه. ولهذا كان كل فرعون يعنى بأن يكتب على آثاره أنه لم يدخر وسعا فى حماية الحقيقة والعدالة وفى إعلاء شأن العقل، لى يثبت بهذا أنه قام بواجبه فى حمل «مآت» إلى الأرض ورعايتها خير قيام. وهالك ترجمة شىء مما يخاطب به فرعون «رع» كبير الآلهة فيقول: «هأنذا أنيت نحوك، وذراعى مجتمعان لحل «مآت» التى أنت موجود، لأنها موجودة؛ وهى موجودة، لأنك موجود؛ والتاسوع يناديك أنك أنت الإله العظيم الذى انتصرت منذ ملايين السنين. وأن «مآت» هى وحيدتك،

ولا شك فى أن لمرادفة «مآت» ابنة «رع» للحقيقة والعقل والعدالة أهمية فلسفية وأخلاقية عظيمة، إذ منذ الذى لا يحد

عن الحقيقة ولا يحترم العقل ولا يطبق العدالة مع علمه بأن هذه الأشياء الثلاثة هى مرادفة لابنة «رع»، وهى روح التاسوع المقدس كله. وإذن، فقد كانت هذه الأسطورة عاملا قويا فى تحفيز الهمم على البحث عن الحقيقة وعلى احترام العقل وعلى إجلال فضيلة العدالة كما سنذكر ذلك فيما بعد. وهل الفلسفة النظرية الإغريقية شىء آخر غير البحث عن الحقيقة؟ وهل الفلسفة العملية شىء غير تطبيق الفضائل التى أهمها - بعد الحكمة - الناجمة عن احترام العقل المشروط فى الفلسفة المصرية - هى فضيلة العدالة التى استقامت بها كفتا ميزان السماء والأرض؟

نقل العام

كان كل ما أسلفناه لك من تطورات دينية ومن محاولات قوية فى التوفيق بين الدين والعقل هو تعقيلات الخاصة والمستنيرين. أما العامة فكان لهم تعقل يخالف هذا مخالفة طفيفة حينا وشديدة حينا آخر، فهم لما وجدوا «أثوم» المتمزج عند الخاصة برع لا زوجة له ولم يستطيعوا أن يعقلوا أنه الذى سماه الخاصة «فعل الشمس» ونسبوا إليه نشوء الفراغ والهواء زعموا أنه ولد طفلين بطريقة لا ترضى عنها الأخلاق، وهما الهواء والفراغ، فتزوج ذكرهما أنثاهما فولدت له السماء والأرض. وهذان الأخيران أيضا قد تزوجا بدورهما، ولكنهما التصقا ببعضهما التصاقا محكما يحول بينهما وبين تحقق وجود الكائنات؛ فلما رأى الهواء ذلك اجتهد فى تفريقهما فسعى حتى مر من بينهما ففصلهما ورفع السماء إلى أعلى فوق ذراعيه، فغضب الزوجان من هذه الفقرة غضبا شديدا وما زالا يجتهدان فى إزالتها حتى الآن. وما الجبال الشاخنة التى تحاول الوصل بين الأرض والسماء إلا من نتائج هذا المجهود الذى يحاوله الزوجان. غير أن هذه الفقرة التى آلمت الزوجين إبلا ما شديدا كانت سعيدة، لأنها سمحت للكائنات الحية بالوجود فوق الأرض كما سمحت للشمس بأن تظهر من السماء، ولكن سكان «هيليوبوليس» الذين كانوا على وفاق فى هذه الأسطورة يبدأون بعد هذه النقطة يختلفون، فيذهب بعضهم إلى أن «نوت» الذى هو عند الفريق الأول أحد الزوجين المتفرقين إنما هو البقرة العظمى الخالدة التى تنسل كل يوم عجلا هو شمس ذلك اليوم؛ أما زوجها فهو «رع» نفسه، ولذلك أصبح «رع» فى نظر هذا

« سو ، فـه جيب ، فـه أوزيريس ، فـه هوروس ، فـه فرعون ؛ وبهذا استطاع الشعب أن يؤول عقيدة الخاصة في ألوهية فرعون ، ولعل القارىء لا تخفى عليه فطنة أولئك العامة الذين حينما رأوا الخاصة يؤطون فرعون ، ابتدعوا لذلك مبررات لبقة تسير في طريق منسق من رع إلى فرعون

نظرية الفكر المصرية أو أصل المثل الأفلاطونية

كان المصريون يعتقدون أن الاسم هو كل شئ. في الكائن وأنه لا كائن بدون اسم ، أو أن الاسم هو الفارق الأواحد بين العدم والوجود . لهذا تقول الآية المصرية القديمة : « إن جميع الآلهة قد خرجوا من فم رع ، وأن رع هو الذى خلق كل عناصر الطبيعة » . ومعنى هذا أن « رع » هو الذى سمي الآلهة والعناصر ، وكان أول من نطق بأسمائها جميعاً . ومن حيث إنه كان إذ ذاك وحده ، فيكفى لإيجاد الإله أو العنصر أن ينطق باسمه فيما بينه وبين نفسه أو أن يفكر فيه لأن نطق الاسم باللسان ليس إلا تعبيراً عن المسمى الموجود أو الفكرة التى يحتويها القلب والتي هي جوهر الأشياء جميعاً وبدونها لا يفوز بوجود بالكينونة . وقد ذهب كهنة « هيليوبوليس » ، أو مدينة الشمس إلى أن الفكرة لا تتمتع الكائن الوجود فحسب . بل إنها هي التى تحفظ عليه وجوده الدائم ، فإذا قدر على أى كائن ما أن يزول اسمه من فكرة الإله ، فإنه يهوى في الحال إلى العدم المطلق . ولا أحسب أن من العسير على الباحث المتقصى أن يستكشف عناصر المثل الأفلاطونية ، واضحة جليلة في هذه الفلسفة المصرية التى سبقت أفلاطون بأكثر من ثلاثة آلاف سنة ، لأن أفلاطون يعتبر جميع هذه الكائنات المادية التى تدب على الأرض خيالات لا حقائق ، ولا يعترف بوجود حقيقي إلا لعالم « الفكر » المجرد عن علائق المادة وغواشي الطبيعة . أما هذا الوجود المشاهد بالمدركات الدنيا ، وهى الحواس ، فهو لا يزيد على أنه ظلال لعالم الحقيقة الذى لا تدركه إلا قوة البصيرة التى تخلص صاحبها من الشهوات الحيوانية ؛ وأما هذه الظلال المشاهدة ، فوجودها لا يحقق حقيقة الكائن لأنه وجود مؤقت فوق أنه خيالى . وإذا ، فلست أظننى في حاجة إلى إيضاح الرابط المتين الموحد بين نظرية أفلاطون

الفريق متزوجا وترك حياة العزوبة القاحلة . وهناك فريق ثالث تفرع من الفريق الثانى وذهب إلى أن هذه البقرة الخالدة هي « نون » ، التى هي أصل العناصر جميعها والتي منها نشأ رع نفسه غير أنه ينبغي أن نلاحظ أن البقرة الخالدة التى هي عند بعض العامة زوجة رع وعند البعض الآخر منهم أمه ليست إحدى هذا البقر الذى يدب على الأرض ، وإنما هو تصوير لكائن عظيم كثير الخصوبة والانتاج لا أكثر ولا أقل . وهذا الفريق الأخير الذى يرى أن البقرة الخالدة هي أم رع يعتقد أنها واقفة في الجو ، وأن رع يتنزه في فلك من الذهب يسبح فوق ظهرها كل يوم من الشرق إلى الغرب على مرأى من الناس جميعاً . ولما أدركته الشيخوخة ، وكانت أعضاؤه من ذهب . وعظامه من فضة ، فقد طمع البشر في أن يستولوا عليه وأخذوا ينظرون إليه بعين الشراهة ، فشأ كته منهم هذه الجرأة الوقحة وصمم على عقابهم ، ولكنه أبى أن يستبد بإصدار هذا العقاب فدعا مجلس الآلهة للانعتاد وعرض عليه هذه القضية ، فأشارت عليه أمه بأن يبعث فيهم الإلهة « هاتور » ، تريق دماهم وتقطع أعناقهم جزاء وفاقا لوقاحتهم وطمعهم في الآلهة ؛ وقد كان ، فنزلت الإلهة هاتور مقتلة مدمرة حتى ملأت سطح الأرض دماء ، وكانت ستظل على هذه الحال حتى تبيد جميع العنصر البشرى لولا أن أخذت الإلهة الشفقة على الإنسان من جديد ، فصمم على العفو عنه ، ولكنه لم يستطع اقناع « هاتور » ، الجبارة بالعدول عن خطتها التى كلفها بها مجلس الآلهة فأحضر لها عصيراً أحمر من بعض الفاكة وأنبأها بأنه من دماء البشرية التى تحقد عليها فشربته مسرورة ولم تعد تميز شيئاً ، وبهذا وقف القتل والتدمير

وبعد أن كف رع حركة القتل عن بنى الإنسان أحس بتفوق من استمراره في الحكم مع هذه الشيخوخة فاعتزل السلطة آسفاً محزوناً على الشباب وقوته . وقد انتهزت « ايزيس » هذه الفرصة الذهبية فاتجهت إلى رع وأنبأته بأنها تستطيع أن تعيد إليه الشباب على شرط أن يكشف لها عن اسمه الأعظم الذى لا يعرفه إلا هو . وما زالت به تغريه حتى حصلت على بغيتهما التى كانت تعلم أنها تنيلها كل فرصة ، للتصرف في الكون ثم مرت هذه السلطة بالتتابع إلى الآلهة

هكذا قال زرادشت

الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الموعظ

ما الحياة إلا ينبوع مسرة ، ولكن أيان شرب الوغد
فهنا لك جدول مسموم . أحب كل ما هو نقي ، ولكنني
لا أحتمل رؤية الأشداق تتأب معلة ظمأ الأرجاس ، وقد
جاؤا يسبرون أعماق البئر بأنظارهم فانعكست في قرارتها
ابتسامتهم الشعاء توجه سخريتها إلى .

لقد دنسوا المياه المقدسة بأرجاسهم ، وماتورعوا فدعوا
أحلامهم القدرة سروراً فدنسوا سمومهم حتى في البيان .
إن اللهب يتعالى مشمراً عند ما يعرضون قلوبهم المائعة عليه ،
والروح نفسها تغلي وتتصاعد بخاراً عند ما يقترب الأوغاد
من النار ، والآثام نفسها يفسد طعمها وتراخي عند ما يلبسونها
بأيديهم ، وإذا ما حذجوا بأنظارهم الأشجار المثمرة فإنها تجف
على أعراقها .

لكم من مريض عن الحياة لم يفره منها سوى الوغد
الزئيم ، فغافها إذ لم يشأ أن يقاسم هذا الوغد ما عليها من ماء
ولهب وأثام .

لكم من شارد لجأ إلى الصحراء متحملاً السعار عائشاً
بين الوحوش كيلا يجلس إلى بئر يدور بها حداة العيس
بما عليهم من أقدار .

ولكم جاء الأرض من مكتسح أشبه بالبرد المتساقط
من السحاب ولا أمنية له سوى ضرب قدمه في أشداق
الأوغاد ليسد حناجرهم .

ما صعب على الاعتقاد باحتياج الحياة إلى العدا والقتل
والاستشهاد كما صعب على التسليم بضرورة وجود الوغد
الزئيم فيها .

أمن ضرورة الحياة هذه النايح المسممة والنيران المشبوبة

هذه وبين قول المصريين : « إن الفكرة لا تحقق للكائن
وجوده لحسب ، بل هي وحدها التي تضمن له دوام هذا
الوجود ، أوقولهم : « إن جميع الموجودات قد خرجت من
فم (رع) وإنه يكنى لايجاد الكائن أن يجري اسمه على لسان (رع)
بعد أن مرسمه بقلبه ، لأن اللسان ليس إلا معبراً عن الجنان ،
أليس في تعبيرهم بأن الفكرة وحدها كافية لتحقيق الوجود
وخلوده تصريح واضح بأن كل ما عدا الفكرة في الكائن
لا يؤبه له ؟ ثم أليس في قولهم : « إن الموجودات كلها خرجت
من فم (رع) » إيدان بأن المادة المحسة لا يستحق منها بالوجود
إلا فكرتها التي خطرت لرع وان المحس منها لا قيمة له ؟

لا ريب أن في هذا الاكتشاف الذي أسجله اليوم على
صفحات هذه المجلة ردّاً جديداً على أرسطو و « سانت هابر »
ومقلديهما وأذناهم القائلين باستقلال الفلسفة اليونانية وعدم
تأثرها بالفلسفات الشرقية ، كما أن فيه ردّاً بليغاً على ذلك
الفريق الذي يحط من شأن العقلية الشرقية ، لأن مذهب
« المثل » - وهو أسمى ما أنتجته العقلية الغربية - هو مشيد على
أساس هذه النظرية المصرية ما في ذلك لبس ولا ارتياب .
وكما أن الفكرة هي التي تمنح الوجود للحوادث وتحفظه عليها ،
هي تحفظ الوجود الكامل كذلك على « رع » نفسه . ولهذا
السبب اهتم بأن يخلق العالم ، لكي يظل اسمه حياً منبثاً في
جميع عناصر الطبيعة ، مذكوراً على ألسنة أفراد المخلوقات
حتى يضمن لنفسه وجوداً كاملاً من كل الوجوه ، لأن تعقله
هو لذاته لا يكنى في تحقيق الوجود الكامل إلا إذا خلا الكون
من جميع ما سواه ؛ أما وفي الوجود كائنات أخرى ، فلا
يتحقق له الوجود الأكمل إلا بتغلغل فكرته في كل قلب
وجريان اسمه على كل لسان .

ومن هذا التغلغل نتج دور تفكيرى عجيب ، وهو أن الإله
ضرورى للإنسان بحيث لا يمكن وجوده إلا به ، وأن الإنسان
ضرورى للإله بحيث لا يمكن استمرار وجوده الكامل إلا
بتغلغل الإنسان إياه وتفكيره فيه ونطقه باسمه . ولا ريب
أن هذه الدائرة قد أعلت من شأن الكهنة ، لأنهم هم أكثر
الناس ذكراً لأسماء المعبودات ، وبالتالي هم أكثر الناس تأثيراً
في احتفاظ الآلهة بوجودهم الكامل .

محمد محمد

(ينج)